المحاضرة الرابعة: أهمية البحث في نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي

البحث في نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي أمر هام، وحاجة ملحة في المحتوى المعرفي وتطبيقاته، وعلى المستوى الإسلامي والإنساني، وهذه الأهمية تتجلى في ثلاثة أمور:

الأمر الأوَّل: انتِهاء عصر الحضارات الموقوتة المتتابعة، وبدء عصر الحضارة العالمية الواحدة المستمرَّة.

الأمر الثاني: هو عجز المسلِم عن قراءة حركة التَّاريخ؛ أي: الماضي والحاضر والمستقْبل، وعجزه عن تنمية قدراته العقلية والعملية؛ لتحديد علاقته بماضيه وتراثه، وتحليل حاضره وتجديده، وتحليل مستقبله، وبلورة رسالته وتنمية قدراته التي تؤهله لحمل الرسالة.

الأمر الثالث: الانشقاق بين ميادين المعرفة وأدواتها في الحضارة الحديثة، وانتقاد العلماء الغربيين لمنهج المعرفة المعاصر[1].

1 – ماجد عرسان الكيلاني، نظرية المعرفة في التربية الإسلامية، مصدر سابق، ص 2.

النظام المعرفي الإسلامي

من البدهي في النسق المعرفي الإسلامي أن الظواهر الكونية سواء الطبيعية أو الإنسانية أو الغيبية غير محدودة، وأن العقل البشري محدود ومحدد بقدرات الإنسان وطاقاته وطريقة تعليمه وتنشئته، ومصادره المعرفية ومنهجيته بحيث لا يستطيع العقل الإنساني – مهما تعاظمت قدراته وتعمقت منهجيته وتعددت وسائله – أن يلم بأي من ظواهر الكون في مستوياتها الثلاث الطبيعية والإنسانية والغيبية لأن الفكر الإنساني _كما يرى ابن خلدون[2] _ غير مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفاصيل الوجود له فالوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه لا يعدوها.

والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الأعمى، فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من المدركات غير مدركاتنا، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[سورة البروج:20][3].

في ظل هذه الحقيقة القاضية بتنوع ظواهر الكون وتعدد أبعادها وتشعبها من جانب، ومحدودية العقل البشري وعدم قدرته على الإحاطة بهذه الظواهر من جانب آخر، تصبح عملية الإدراك وما يترتب عليها من معرفة وعلم عملية في غاية التعقيد والتشابك حيث تصبح مصادر المعرفة متنوعة أشد ما يكون التنوع كمياً، ومحدودة وقاصرة في مفرداتها كيفياً أو نوعياً، فيصير

---

2 – هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن، أبو زيد، الحضرمي، الإشبيلي الأصل ، التونسي، ثم القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م)، عالم أديب، مؤرخ، إجتماعي، سياسي، حكيم، سبقت آراؤه وأفكاره ما توصل إليه أوجست كونت بعد ذلك بعدة قرون. أصبح من المسلم به تقريبا في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع أو " العمران البشري "كما يسميه، وله نظرات نافذة في علم السياسة والاقتصاد، وتعتبر" المقدمة " أول موسوعة في العلوم الإنسانية ، بل هي باكورة العمل الموسوعي العام قبل ظهور عصر الموسوعات بحوالي خمسة قرون . من تصانيفه: " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر.." 145. الموسوعة العربية العالمية، 135/10 : موسوعة السياسة : ج6 ، ص815 – 823 .

3 – نصر محمد عارف، مقال منشور على شبكة الأنترنت، الرابط -http://alinssan.blogspot.com/2005/02/blog post_110764277276665627.html تاريخ التصفح: 2010/01/05 .

كل مصدر من مصادر المعرفة على حدة غير قادر على الوصول إلى الحقيقة أو الاقتراب منها بصورة تكفي لإنارة طريق الإنسان في الحياة وتوصيله إلى أقرب نقطة من ضوء تلك الحقيقة[4].

ومن ثم يصبح من الضروري للعقل البشري أن يوجد تلك المعادلة التي تجمع بين مصادر متعددة للمعرفة تكفي في جملتها لنيل قبس من نور الحقيقة، هذه المعادلة أو هذه التركيبة هي النقطة الأولى والجوهرية في عملية المعرفة، وبدونها يتيه الإنسان في حالة من الغموض والجهل سواء كان جهلاً بسيطاً أم مركباً وعادة ما يكون مركباً لأنه سوف يرى الأشياء على غير حقيقتها ويعتقد أنه يراها على حقيقتها مثل العميان والفيل حين اعتقد كل منهم أن كل الحقيقة محصورة في الجزء الذي لامسه، مما أدى إلى إدراك كامل الزيف لحقيقة الفيل، فقد اعتبره أحدهم مثل جذع النخلة واعتبره ثان مثل الهضبة وثالث مثل الورقة[5].

والإنسان في تعامله مع حقائق الغيب والإنسان والطبيعة يقع في نفس الخطأ المنهجي الذي وقع فيه عميان ابن المقفع، حين يتعامل بقدرات حسية وعقلية محدودة مع ظواهر غير محددة وغير متناهية، ومن ثم تشتد حاجته إلى أن يركب أو يعيد تركيب المعادلة التي تمكنه من الإلمام بأبعاد الحقيقة وحدودها العامة دون إدعاء احتوائها أو الإمساك بكل تلابيبها أو الإحاطة بها.

وهذه المعادلة أو هذا التركيب بين مصادر المعرفة وطرق الوصول إليها يطلق عليه أحياناً الناظم المعرفي وأخرى الضابط المعرفي وثالثة النظام المعرفي ورابعة النموذج المعرفي، أو يطلق عليه في النسق المعرفي الأوروبي مفهوم paradigm.

---

4 – المصدر نفسه.

5 – في نسبية المعرفة البشرية يضرب أبو حامد الغزالي مثالا لهذا القصور وللحدود التي يخضع لها العقل، فيروي لنا هذه الحكاية، "اعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه، فقالوا لابد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه، فوقع يد بعض العميان على رجليه، ووقع يد بعضهم على نابه، ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا قد عرفنا. فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إن الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر، إلا أنه ألين منها. وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول، بل هو صلب لا لين فيه، وأملس لا خشونة فيه. وليس في غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود. وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين، وفيه خشونة.. ولكن.. ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ. فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل. فاستبصر في هذا المثال واعتبر به، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه"22– الإحياء،8/4. فالمعرفة البشرية لا تحيط بموضعها من جميع نواحيه، بل تتعلق بأطراف أو أجزاء منه فقط...

أبوحامد الغزالي– الاقتصاد في الاعتقاد، ص 135–136.

المحاضرة الخامسة: الغزالي وإعادة بناء نظام معرفي متكامل

والناظر في التاريخ الإسلامي يجد أن ما قام به حجة الإسلام أبو حامد الغزالي[6] من أعمال يمثل عملية متكاملة لبناء النظام المعرفي أو إعادة بنائه، وهي ذاتها تلك العملية التي أطلق عليها إسلامية المعرفة، فقد كتب "إحياء علوم الدين"، ثم خصص أكثر من كتاب لقضايا العقيدة ثم كتب "تهافت الفلاسفة"[7].

نظرية المعرفة عند الغزالي:

نظرية المعرفة، وعلاقة ذلك بمجال العقائد والإيمان، هذه القضايا كانت – وما زالت– هامة وحيوية في فكر حجة الإسلام – قدس الله سره –.

وهي مرتبطة أشد الارتباط برحلته في البحث عن الحقيقة، وقد قدم حديثا صريحا في نظرية المعرفة في العديد من مؤلفاته كالمنقذ من الضلال، وميزان العلم، كما خصها ببعض المؤلفات المستقلة كالقسطاس المستقيم، والذي تناول فيه ميزان المعرفة، والرد على نظرية المعرفة عند الباطنية.

---

6 – أبو حامد محمدالغزالي450-505هـ، 1058-1111م. حجة الإسلام، وُلِدَ في طُوس، وفقد أباه صبيًّا.أتى نيسابورَ، فأخذ التصوف على الفراهيدي، والفقه والكلام على إمام الحرمين، ثم أتى مجلس نظام الملك، وزير السلاجقة سنة 478هـ (1085م)، حيث أقام ست سنوات، عيّنه بعدها الوزير أستاذًا في نظامية بغداد. ودرّس في بغداد أربع سنوات (484-488هـ) مرّ أثناءها بشكوك وألف كتابين هما :مقاصد الفلاسفة؛ حيث عرض فلسفة الفارابي وابن سينا، وتهافت الفلاسفة، حيث انتقد هذه الفلسفة. وهو مفكّر كبيرّ محيط بمقالات الفلاسفة، نافذ البصيرة في المجتمع وأهله. كان في المنطق والفلسفة الخالصة عَلَمًا من أعلامها، غير أنه استخدم المنطق لنصرة الدين، وحمل على الفلسفة لأنها تُضِلُّ ذوي الاستعداد العقلي القاصر.

أهم كتبه :مقاصد الفلاسفة487هـ؛ تهافت الفلاسفة 488هـ؛ المستظهري؛ الاقتصاد في الاعتقاد488هـ؛ إحياء علوم الدين 488هـ؛ أيها الولد، ويسمى الولدية ؛ المنقذ من الضلال 502هـ؛ المستصفى503هـ؛ إلجام العوام عن علم الكلام بين 504 – 505هـ، وغيرها.

7 –أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص ص 15-17. إحياء علوم الدين3/17-18.

وقد حاول **الغزالي** في قسطاسه استخراج ميزان المعرفة من القرآن الكريم، حيث استطاع أن يستخرج منه خمسة موازين:

ميزان التعادل «الأكبر، والأوسط والأصغر»، وميزان التلازم، وميزان التعاند،

ثم أخذ في شرح هذه الموازين بالتفصيل، فقد حاول فيه الغزالي استخراج أشكال القياس العقلي من القرآن الكريم مباشرة، كما حاول أن يستخرج أيضا أمثلة لهذه الأقيسة من القرآن، وكان قادرا على ذلك بمهارة، ليبين أن استخدام هذه الأقيسة الصورية أمر مشروع ومندوب إليه في طلب المعرفة الحقة، ثم أخذ ينقض نظرية المعرفة عند الباطنية القائمة على القول بالإمام المعصوم[8].

أقسام المعرفة :

- تنقسم المعرفة عند الغزالي إلى ثلاثة أقسام[9]:

- **المعرفة الغيبية الميتافيزيقية** ومعرفتها بطريق التفصيل لا تتم إلا عن طريق الوحي.

-**المعرفة المنطقية والرياضية**، وطريقها العقل.

-المعرفة التجريبية وطريقها الحواس، وغايتها الظن لا اليقين، ويوضح الغزالي ذلك بقوله: "وأبعد العلوم الثلاثة عن التشويش الرياضي، وأما الطبيعي فالتشويش فيه أكثر لأن الطبيعيات بصدد التغيرات، فهي بعيدة عن الثبات بخلاف الرياضيات"[10].

مدارك المعرفة وترتيبها لدى الغزالي[11]:

8 – أبو حامد الغزالى، جواهر القرآن، ص 18 – 49 . وينظر: د/ أحمد عرفات القاضي، التربية والسياسة أبى حامد الغزالي، (ص 14). وقد قدم أ/د محمد مهران فى دراسته القيمة "المنطق والموازين القرآنية – قراءة في كتاب القسطاس المستقيم للغزالي"، دراسة ضافية عن هذا الكتاب بخصوصه، متناولا المنطق في ثوبه الإسلامي، وموازين القرآن الخمسة.

9 – سليمان دنيا، مقدمة تحقيق تهافت الفلاسفة، ص 45.

10 – الغزالى ، مقاصد الفلاسفة ص 7.

11 – ينظر: فيكتور سعيد باسل، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي، ص89.

اعترف الغزالي بتنوع مدارك المعرفة ووجوه الاستدلال والتناظر فهي عنده:

1. **الحسيات،** أي المدرك بالمشاهدة الظاهرة والباطنة.

2. **العقل المحض**. ومثل له الغزالي بمبدأ عدم التناقص، وذلك أن القسمة- من حيث الوجود- ثنائية، قال: فإن ادعى قسمها ثالثا كان منكرا لما هو بديهي في العقل.

3. **التواتر،** أي الخبر المستفيض الثابت.

4. **نوع من القياس** فيه"يكون الأصل مثبتا بقياس آخر يستند بدرجة واحدة أو درجات كثيرة، إما إلى الحسيات أو العقليات أو المتواترات". فهذا القياس- إذن- يؤول إلى أحد المدارك الثلاثة السابقة.

5. **السمعيات،** أي الوحي.

6. **مسلمات الخصم،** في حال المناظرة، حيث يكون الأصل مأخوذا من معتقدات الخصم ومسلماته، فإنه وإن لم يقم لنا عليه دليل، أو لم يكن حسيا ولا عقليا، انتفعنا باتخاذه إياه أصلا في قياسنا، وامتنع عليه الإنكار الهادم لمذهبه.

7. **والذوق والمكاشفة الذوقية.**

قال الغزالي- في ترتيب هذه المدارك من حيث سعتها أو أهميتها-: اعلم أنها متفاوتة في عموم الفائدة. فإن المدارك العقلية والحسية عامة مع كافة الخلق... وأما المتواتر فإنه نافع، ولكن في حق من تواتر إليه...وأما الأصل المستفاد من قياس آخر، فلا ينفع إلا مع من قدر معه ذلك القياس...

وأما مسلمات المذاهب فلا تنفع الناظر، وإنما تنفع المناظر مع من يعتقد ذلك المذهب.

وأما السمعيات فلا تنفع إلا من يثبت السمع عنه... وكذلك المكاشفة لا تنفع إلا صاحبها، أو من يقلده فيها. لكن الإنسان لا يزود بهذه المدارك دفعة واحدة، بل على التدرج فهو- في البداية- يكون خاليا لا يعرف شيئا. ثم يعرف العالم- أولا- بواسطة الحواس.

وأول ما يخلق فيه منها– يرى الغزالي– هو حاسة اللمس، ثم البصر، ثم السمع، ثم الذوق... ويستمر الطفل معتمدا على حواسه إلى أن يخلق فيه التميز– وهو قريب من سبع سنين– فيجاوز عالم المحسوسات ويدرك أمورا زائدة عليه، وهو طور من أطوار وجوده... ثم يترقى إلى طور ثالث، فيخلق له العقل، وبه يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات... [12].

وكما رأينا أن ماقدمه الغزالي من أعمال يمثل عملية متكاملة لبناء النظام المعرفي أو إعادة بنائه، وهي ذاتها تلك العملية التي أطلق عليها إسلامية المعرفة ،كذلك نجد ابن تيمية يعالج قضايا التجديد الفقهي وقضايا العقيدة في رسائله المختلفة ثم يكتب "نقض المنطق"[13]، وغيرهم من العلماء كثير يحتاج إلى بحث ورصد دقيق توزعت جهودهم على المحاور الثلاثة السابق الإشارة إليها والتي تؤدي إلى إعادة تفعيل النظام المعرفي بما يؤدي إلى توازنه وفعاليته.

ومن ثم فإن حقيقة النظام المعرفي كامنة في فكر المسلمين وعلومهم منذ بدء ظهورها وإن لم يكن يطلق عليه هذا المفهوم، أما في القرنين الأخيرين فقد أدى الازدواج الثقافي إلى نوع من الاضطراب في تعريف المفاهيم وتحديد دلالاتها، فقد استخدم مفهوم النظام المعرفي أو النموذج المعرفي أو النسق المعرفي كمترادفات، وكان التعريف الكامن خلف هذه المفاهيم هو تعريف مفهوم paradigm الذي وضعه توماس كوهن في كتابه "بنية الثورات العلمية" والذي قصد به "مجموعة متآلفة منسجمة من المعتقدات والقيم والنظريات والقوانين والأدوات يشترك فيها أعضاء مجتمع علمي معين وتمثل تقليداً بحثياً كبيراً أو طريقة في التفكير والممارسة ومرشداً أو دليلاً يقود الباحثين في حقل معرفي معين"[14].

12 – المصدر نفسه، ص58.

13 – طه جابر العلواني حول "ابن تيمة وإسلامية المعرفة"، ضمن السلسلة التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب، حول موضوع "إسلامية المعرفة"، ط1415هـ-1995م، نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب الإسلامي.

14 – ينظر: نصر محمد عارف، مقال منشور على شبكة الأنترنت، مصدر سابق.